بسم الله الرحمن الرحيم

من الأحاديث التي صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يتلقاه كثيرٌ من المؤمنين كبشرى كبرى، ولكنهم لا يعلمون الأبعاد والمعاني العميقة التي أرادها صلى الله عليه وسلم من تلك الأحاديث، فيُخطئون في فهمها، وبدلاً من أن تكون لهذه الأحاديث آثار الانتشال من حالة الضياع، إلى صعيد الاستقامة على صراط الله تعالى، تفعل هذه الأحاديث في حياتهم نقيض ذلك!

فمن تلك الأحاديث ما صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: ((من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه)) وقوله: ((من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)).

كثيرون هم الذين يجدون في مثل هذه الأحاديث ضالتهم، يكون الواحد منهم قد تحمل من الآثام والمعاصي ما لله به عليم، ثم يجد في صومه لشهر رمضان ما ينجيه من هذه الأثقال كلها، ويجد في توجهه إلى بيت الله الحرام حاجاً ما يعود به إلى اليوم الذي ولدته فيه أمه نقياً من سائر الأوزار والآثام، فإذا وجد نفسه قد اقترف مرةً أخرى مثل تلك الأثقال والأوزار، وجد العلاج ينتظره بشهر رمضان القادم، وبالحج القادم! وهكذا يطمئن بأن المعاصي لن تحجبه عن الله عز وجل لأنه يستطيع أن يصوم ويحج وإذا بالمعاصي كلها زالت وعاد طاهراً مطهراً من سائر الأوزار.

ومكان الخطأ هو تصورنا أن الطاعات وأداء الفرائض، هي التي تفتح للإنسان السبيل إلى مرضاة الله وتغلق السبيل بينه وبين سخط الله عز وجل، والأمر ليس كذلك!

فالطاعات ثمراتٌ للسر الموصل إلى الله تعالى، والسر هو صدق إيمانه ويقينه، الذي عبر عنه البيان الإلهي بالكلمة الطيبة: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا}[إبراهيم: 24]، فهذه الكلمة هي السر الذي يضع في الطاعة روحها ويضع في العبادات معنى قبول الله سبحانه وتعالى.

ومن ملأ حياته كلها طاعات وعبادات، ولكنه عندما رحل إلى الله رحل وإيمانه غائب وليس يقينياً، أو رحل وعقيدته بالله عز وجل قد دخلها زيغ أو ريبٌ أو شك أو شركيات توارثها من مجتمعه! فإن طاعاته كلها لا تفيده.

فحري أن نعلم أن صيامنا لرمضان، إنما هي طاعة طهرت بيتنا الذي كان مغبراً والذي تراكمت عليه الأتربة، والآن وقد عاد البيت نقيا نظيفا، فما الذي يُطلب الآن؟

المطلوب أن ترعى دارك عن أن يتسرب إليها الغبار مرة أخرى، وأن تتراكم عليها الأتربة والأقذار من هنا وهناك مرة ثانية، المطلوب منك أن تغلق النوافذ وأن تكون حارساً على دارك التي تعبت في تنظيفها وتطهيرها من الدنس، أما إن فرحت بأن الدار قد نظفت وأن الأتربة والغبار والأقذار قد غاب وعادت الدار تتألق ثم أهملت الدار فلسوف تعود إليها بعد حينٍ وهي أسوء مما كانت عليه، أكرمك الله بصحيفة بيضاء، بعد أن خرج شهر رمضان، فينبغي أن ترعى هذه الصحيفة البيضاء ألا تسود مرة ثانية.

والسبيل أن تمتن يقينك بالله، وأن تغذي عقيدتك حتى لا يتسرب ريبٌ وشكٌ إلى إيمانك بالله عز وجل! وسبيل ذلك أن تكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى، فذكرك لله هو الحصن الذي يقي صحائفك البيضاء من أن يعود فيتسرب إليها السواد.

فمن ترك قلبه لوساوس الشياطين، أو تزعزعت الثقة بالله تعالى، أو ضعف يقينه بأقدار الله، حجب عن الله عز وجل وذكره، لن تنفعه الطاعات ولن ينفعه صيام لشهر رمضان، قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف: 28] عندما يُغفل الله قلبَ الإنسان عن ذكره يتبع هواه، ثمرة ذلك اتباع الهوى ويصبح أمره بعد ذلك فرطا.

يقول قائل: ها أنا ذا أتمتع بمعتقدٍ قويٍ لا ريب فيه، وأنا لا أشك ولا أرتاب في إيماني بالله سبحانه وتعالى وقد تطهرت من الأدران بصوم رمضان، فأنا مطمأن البال. فنقول له: {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}[الأعراف: 99]

عندما يتغذى الإيمان يوماً بعد يوم، يأتي الموت وإيمانك قوي، يأتي الموت وإيمانك قد تلقى غذاءه الكافي، فلو أن الشيطان وآلام الموت وسكراته أرادوا أن يحجزك عن إيمانك فسيبقى إيمانك مهيمناً على مشاعرك، وسترحل عن هذه الدنيا وأنت تقول: لا إله إلا الله.

ولكن إذا كان يقينك بأن إيمانك بالقلب، وأن صحائفك ابيضت لصومك شهر رمضان أو لقيامك ليلة القدر، ولم تلتفت إلى الغذاء الذي يحتاج إليه إيمانك، وإلى القوة التي ينبغي أن تمد بها إيمانك القلبي بالله سبحانه، فلن تشعر إلا الأهواء ومحبة الدنيا والشهوات، تسربت شيئاً فشيئاً إلى قلبك؛ فيأتيك الموت وفؤادك ممتلؤٌ برغائبك وشهواتك بمالك بوظيفتك بالناس من حولك، يأتيك الموت وقد غلبت هذه المشاعر على تفكيرك، وإذا بالإيمان قد غاب عن بالك؛ فالإنسان عندما يقع في سكرات الموت عقله الباطن هو الذي يستيقظ ويتجلى في كيانه، أما عقله السطحي الذي يفكر به والمسائل التي كان يضعها على السطح من مشاعره وأفكاره فإنها تتطاير من شدة الألم، لا يتذكر في تلك الساعة إيمانه ولا يتذكر في تلك الساعة ربه، ولكنه يتذكر دنياه التي كان يغذيها، يتذكر شهواته التي كان يرعاها.

هذا المعنى ينبغي أن ندركه جيداً وينبغي ألا ندع الشيطان يفسر لنا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على خلاف ما أراده المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم!

والإنسان الذي غفر الله له ذنوبه لابد أن يجد نفسه متجهاً إلى الله، ولابد أن يجد أن سيره إلى المحرمات وسيره إلى الأمور التي حذره الله سبحانه وتعالى منها مغلقة، سيجد أن قلبه قد انشرح إلى التوجه إلى الله وأن نفسه أصبحت تكره ما كانت تعانقه من الأهواء والشهوات{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}[الأنعام: 125].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين